النقد الأدبي في العصر الأموي

في أواخر القرن الهجري الأول تغيرت الحال كثيرا فارتقى النقد الأدبي ارتقاءً ملموسًا وكثر الحديث فيه لأسباب أهمّها:

أولا: تطور الشعر في أواخر القرن الأول، حيث اجتمع شعراء كثيرون من مختلف الأقاليم في ظلال الإسلام، وقد كانوا من نزعات مختلفة ومذاهب أدبية متباينة منهم عمر بن أبي ربيعة في مكة، والأحوص وعبيد الله بن قيس الرقيات في المدينة، وجميل بن معمر وذو الرمّة في البادية، وجرير والفرزدق في العراق، والأخطل في الشام، والكميت الأسدي في الكوفة وغيرهم، وهؤلاء نضجت مواهبهم في أواخر القرن الأول، وقد كثر الكلام فيهم وكثرت الموازنة بينهم، وكانوا مادة كبيرة للنقد الأدبي.

ثانيا: تعدد البيئات النقدية سواء في البوادي أو في الحواضر: فمكة مجتمع الشعراء في موسم الحج، والمدينة مقام بعض العلماء، ودمشق بلد الوفادة على الخلفاء، والبصرة والكوفة مقام الكثير من الشعراء وفصحاء العرب.

ثالثا: رجوع العصبية القبلية إلى عهدها الجاهلي، فقويت الخصومة بين الشعراء، وأمد بنو أمية هذه الخصومة بالوقود، فهذه العصبية التي دعت إلى التهاجي والخصام دعت أيضا إلى الانشغال بالشعر والشعراء.

هذه العوامل وغيرها تضافرت على خلق روح جديدة في النقد، وعلى تحليل صياغة الشعر ومعانيه تحليلا فيه شيء من العمق والنظر، وفيه اختلاف في الذوق والحكم.

ونستطيع أن نميز ثلاث بيئات نما فيها النقد وازدهر إبان العصر الأموي وهي: الحجاز، والعراق، والشام.

1- النقد في الحجاز:

كانت الحجاز في العصر الأموي وخاصة مكة والمدينة حافلة بأنواع الترف، فقد تمركز أبناء الصحابة فيها، وأغدق عليهم خلفاء بني أمية الأموال، وأمدوهم بأسباب الترف من عبيد وجوار حتى يشغلوهم عن السياسة على حد رأي طه حسين. وكما كان في مكة والمدينة حركة دينية واسعة من درس للقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه، كانت في الوقت نفسه أكبر مركز لحياة اللهو والعبث، ففيهما أكبر المغنين والمغنيات من أمثال ابن سريج والغريض ومعبد. كما انتشرت به دور الفيان وأماكن الغناء واللهو، وقد كان فقهاء الحجاز كما روى ابن عبد ربه يجيزون الغناء، واشتهر غير واحد من أبناء الصحابة بحبه للغناء كعبد الله بن جعفر بن أبي طالب. وتأسيسا على هذا انتشر في الحجاز إبّان هذا العصر نوع من الشعر هو الغزل المناسب لحياة اللهو والترف والغناء، وكان يحمل لواءه عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، ونصيب، وكثير عزة، وابن قيس الرقيات، بالإضافة إلى الغزل العذري في بوادي الحجازي بزعامة جميل بن معمر، وقيس بن الملوح، وقيس بن ذريح.

ومن هنا وجدنا النقد الأدبي في الحجاز ينصب على هذا النوع من الشعر أي الغزل، فيتناوله بالتحليل والنقد في مجالس أدبية طريفة ممتعة اشتهر بتصدرها ناقدان بارزان:

أمّا أولهما فابن أبي عتيق وهو من أعلى الناس نسبا إذ يرجع نسبه إلى جدّه أبي بكر الصديق، ويقول عنه المبرد: إنّه من نساك قريش وظرفائهم، وقد غلبت عليه الدعاية واشتهر بها، وكان من الرواة الموثوق بهم في الرواية، وهو مع هذا كله يقول عن نفسه: "أنا بالحسن عالم نظار" كما وصفه عمر بن أبي ربيعة بذلك فقال:

ودعاني ماقال فيها عتيق وهو بالحسن عالم نظار

وقد ملأ الحجاز في عصره نقدا ظريفا لكثير من الشعراء، فتعقب عمر في شعره، وكان يفضله على معاصريه وقول: "إنّ لشعر عمر لوطة بالقلب، وعلوقا بالنفس، ودركًا للحاجة ليست لشعر غيره، وماعصي الله عز وجل بشعر أكثر مما عصي بشعر عمر بن ابي ربيعة"، وكتاب الأغاني للأصفهاني مليء بنقد ابن أبي عتيق قوله:

ولست براض من خليل بنائل قليل ولاراض له بقليل

فقال ابن أبي عتيق:هذا كلام مكافيء وليس بعاشق، وعمر أصدق منك وأقنع حيث يقول:

فَعِدِى نائلاً وإن لم تنيليي إنه يقنع المحبّ الرجاء

وسمع عمر بن أبي ربيعة مرّة ينشد قوله:

بينما ينعتنني أبصرنني دون قيد الميل يغدو بي الأغر

قالت: أتعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

فقال له ابن أبي عتيق: أنت لم تنسب بها، إنما نسبت بنفسك.

وأنشد كثير عزّة يومًا قوله:

كذبن صفاء الود يوم محلّه وأدركني من عهدهن رهون

فقال ابن أبي عتيق: يابن أبي جمعة، فذاك والله أصلح لهنّ، وأدعى للقلوب إليهن. ولابن أبي عتيق من مثل هذا النقد الشيء الكثير مما هو مبثوث في كتب الأدب.

وأمّا الناقد الثاني فالسيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب التي كانت من أجمل نساء عصرها وأظرفهن، قال فيها صاحب الأغاني: "إنها عفيفة برزة تجالس الأجلة من قريش، ويجتمع إليه الشعراء، وكانت ظريفة مزاحة"

وقد أثرت عنها الكثير من المجالس الأدبية والنقدية في كتب الأدب، فهي مثلا تسمع نصيبا يقول:

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فواعجبا من ذا يهيم بها بعدي

فتعيبنه بأنه صرف رأيه إلى من يعشقها بعده، وتفضل أن يقول:

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ويروى أنها استمعت إلى قول جرير:

طرفتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي سلام

فقالت له: ما أحسنت ولا سلكت طريقة الشعراء، أن يكون وقت لا تصلح فيه زيارة الحبيب؟ ألا رحبت وقرّبت وقلت: فادخلي سلام.

وهكذا نلاحظ كيف تلون النقد بلون البيئة الشعرية السائدة في الحجاز إبّان العصر الأموي.

2- النقد في العراق:

كان العراق في العصر الأموي مسرحًا للفتن والثورات، وكان من نتاجها استشهاد الحسين بن علي في الكوفة، لهذا عرف شعب العراق بمعارضته للنظام الأموي ومناهضته له، ووجدنا القليل منه يدين بالولاء للخلفاء والولاة من بني أميّة، ولذلك اتخذ الحكام سياسة التفرقة بين القبائل والأحزاب والإيقاع بينهم، واتخذوا من الشعراء سلاحًا للفتك بهم والنيل منهم، وبث الفتن بينهم، فكان الشعر الذي اتجه إلى الهجاء القبلي ومدح الحكام، لذلك يعد الشعر العراقي شبيهًا إلى حدّ بعيد بالشعر الجاهلي في موضوعاته وأساليبه. فقد بعثت فيه العصبية القبلية من جديد، وصارت أغلب موضوعاته تتصل بهذه العصبية من فخر وهجاء: يفخر الفرزدق بقبيلته من تميم ويهجو غيره، وفخر جرير كذلك ويهجو قبائل خصومه، وقد كان أشهر مكان للتسابق والتهاجي بين الشعراء في العراق يشبه نظيره في الجاهلية، ونعني به سوق المربد في البصرة الذي كان يشبه سوق عكاظ في الجاهلية، فقد كان سوق المربد مجتمع العرب يتناشدون فيه الأشعار

ويبيعون ويشترون، وكان العرب يعيشون فيه عيشة تشبه عيشة الجاهلية من مفاخرة بالأنساب، وتعاظم بالكرم والشجاعة. وذكر لما كان بين القبائل من عداوات وأحقاد.

كان سوق المربد يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون، ويعلي كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية، فيجتمع فيه جرير والفرزدق ويتنافران ويتهاجيان، ويحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل وغيرهم، وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره، وحوله الناس يسمعون منه، ولكل شاعر جرز ينتصر ويتعصب له، وقد خلف لنا سوق المربد شعرًا كثيرًا أهمه مجموعتان:

1- مجموعة كبيرة من النقائض بين جرير والفرزدق، فكان أحدهما يقول قصيدة في هجاء صاحبه على وزن خاص وقافية خاصة، فينقضها الآخر ويحولها إلى هجاء خصمه على نفس الوزن والقافية، مما سمي بشعر النقائض.

2- مجموعة كبيرة من الأراجيز المشهورة للعجاج، وأبي النجم العجلي ورؤبة وغيرهم.

وهاتان المجموعتان تعكسان لنا خصائص الشعر العراقي فهو متميز بأسلوبه الفخم الذي يشبه الأسلوب الجاهلي، ومعانيه البدوية التي لم تمسها الحضارة إلاّ مسّا رقيقا، والتي يشيع فيها الفخر القبلي، والهجاء القبلي.

ولهذا نجد النقد في العراق يتناسب مع هذا اللون من الشعر؛ فقد كان متجهًا إلى التفضيل بين الشعراء، فأي الثلاثة أشعر جرير أو الفرزدق أو الأخطل؟ وسموا هذا قضاء، وسموا الذي يحكم قاضيا، وسموا هذا العمل حكومة، قال جرير في الأخطل لما فضل الفرزدق عليه:

فدعوا الحكومة لستمو من أهلها إنّ الحكومة في بني شيبان

وكانت لهم أحكام نقدية كذلك في ميزة الشاعر، ووجوه ضعفه ،ووجوه قوته، وأحكام في الموازنة بين الشعراء؛ كحكم جرير على الأخطل بأنه يجيد مدح الملوك. وكموازنة الأخطل بين جرير والفرزدق بأن جريرًا يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر. وجعلوا من لم يسر على طريقة هؤلاء الشعراء في المدح والهجاء متخلفا، رووا أنّ ذا الرمة قال للفرزدق: مالي لا ألحق بكم معشر الفحول؟ فقال له: لتجافيك عن المدح والهجاء واختصارك على الرسوم والديار، وما إلى ذلك من الشواهد النقدية التي تصور طبيعة النقد في هذه البيئة.

3- النقد في الشام:

لئن كان الشعر في الحجاز أكبر مظهر له الغزل والنقد يتبعه الشعر في العراق أكبر مظهر له الفخر والهجاء والنقد يتبعه، فالشام أكبر مظهر لشعره هو المديح، وكان هذا طبيعيا في دمشق عاصمة الخلافة الأموية، والشعراء يغدون على الخلفاء بمدائحهم التي أنفقوا فيها وقتا طويلا، والخلفاء يعطون عليها فيجزلون العطاء،

إما سياسة منهم حتى يتألفوا الشعراء ويأمنوا شر ألسنتهم، ويستجلبوا منه الثناء عليهم فيشيع ذلك في الناس، وإمّا تقديرا للشعر نفسه، وإعجابًا به على عادة العرب في إعجابها بالشعر منذ الجاهلية.

وكانت قصور الخلفاء تفيض بالمجالس الأدبية، فالشاعر إذا قال قصيدة قالها في جمع كبير، وإذا نقدت في جمع كبير، وكانت القصور مركزا للأدب كما كانت مركزا للسياسة.

الشعر الذي يناسب القصور هو شعر المديح، لهذا لون الشعر الشامي بلون المديح، ولون النقد بلون هذا الفن، فكان النقد منصبًا على شعر المديح. ولعل خير من روي عنه نقد شعر المديح عبد الملك بن مروان فيقومه تقويما حسنا، يدقق في معانيه، وينقدها بذوقه المرهف.

فقد عاب على بعض الشعراء قلة ذوقهم وعدم مراعاتهم المقام، وعدم البراعة في الاستهلال فعاب ذا الرمة لما بدأ قصيدته بقوله: "مابال عينك منها الماء ينسكب"، فقال له: "بل عينك"، وغضب عليه ونجاه حتى عاد وقال: "مابال عيني منها الماء ينسكب"، وعاب على الأخطل افتتاحه قصيدته البديعية بقوله: "خف القطين فراحلوا منك أو بكروا" وقال له: "بل منك إن شاء الله"، فعاد الأخطل وغيرها بقوله: "خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا"، كما عاب على بعض الشعراء نبو ذوقهم في شعرهم، فلما أنشده جرير:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينا

قال: مازاد على أن جعلني شرطيا، أما أنه لو قال: لو شاء، لسقتهم إليه.

كما يكره من بعض الشعراء أن يطيلوا في مدح أنفسهم أو ذوقهم، ويرى أن يكون المدح خالصًا للممدوح، فقد انشده ذو الرمّة قصيدة أطال فيها مدح ناقته، فقال له: "مامدحت إلا ناقتك فخذ منها الثواب". ولعبد الملك بن مروان كثير من أمثال هذا النقد الذي يدل على علو مقامه في نقد شعر المديح في الشام، وهو لايقل عن نقد ابن أبي عتيق لشعر الغزل بالحجاز.

هذه خلاصة موجزة للنقد الأدبي في البيئات المختلفة في العصر الأموي، فكل النقد يدور حول تفضيل شاعر على شاعر. و ميزة شاعر على آخر، وضعف المعاني التي يأتي بها الشعراء، وتفضيل بعضها على بعض، وتخير الألفاظ، وحسن الصياغة أو قبحها.

وأثرت المدارس اللغوية والنحوية في الشعراء والنقاد، وكان علماء اللغة والنحاة يخضعون الشعر للأحكام النحوية، وعندهم أنّ المتفوق من الشعراء من اهتم بقوافي الشعر، ومن كانت قصائده تتفق والقواعد النحوية، والشعر المضطرب عندهم من أفسد فيه صاحبه مقاييس اللغة.